ذكرى اليازجي

أو ختام المجلس

بحث لغوي في لفظ الراء بمعنى الرأي

للاديب جبران النحاس

نقلاً عن جريدة البصير

٢٦ دسمبر سنة ١٩٣١

obeikandl.com

obeikandl.com

ذكرى اليازجي

او (ختام المجلس)

انقضت اليوم خمس وعشرون سنة على وفاة علامتنا الطيب الاثر المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي . فلا أقل من ان نذكره بحرف واحد من هذه اللغة التي انفق حياته على خدمة حروفها والفاظها ومعانيها وكل ما يمت اليها بصلة نسب .

اذكر مجلساً من اواخر عهده بالتدريس في بيروت . وقد مرت بنا كلمة مثل قول البديع : (انا امشي بالنهار على الماء . واعرج بالليل الى السماء) فسألته عن ما في شطرها الاول أهو اشارة الى مثل ما في الانجيل . فقال الشيخ هو كذلك . ومثله كثير في كلام المولدين كقول الآخر :

مرّتني بركوب البحر اقدمه
غيري لك الخير فاخصصهُ بذا الداء
ما انت نوحٌ فتُنجيني سفينتهُ
ولا المسيحُ انا مشي على الماء

فطربنا لهذا الشاهد الجامع بين حاشيتي الانجيل والتوراة . غير اني اعترضت على موقع الدآء من البيت الاول . فقال الشيخ انه روي ايضاً (فاخصصني بذا الرآء) . لكنهم انكروا الرآء مقلوب الرأي . على كثرة ورودها في كلام المولدين . وصاحب البيت منهم .

ولست ادري ماذا حفزني عندها . فاستشهدت بقول ابي الطيب :

لا خلقَ اسمحْ منكَ الا عارفٌ
بك رآءَ نفسكَ لم يقل لك هاتِها

فبدا في نظر الشيخ استغرابه لمثل هذه السقطة مني . لان الكلام كان على انكارهم الرآء مقلوب الرأي . وهي في بيت ابي الطيب فعل . والمقلوب لا نصيب له من التصريف فلا يحكم بالفعل على ورود المصدر .

وكرت على ذلك المجلس الايام والليالي ثم خطر مرة ببالي فعن لي التنقيب عن كلمة (الرآء) . فاذا هم يذكرون منها الفعل ولم اظفر باحد نبه على الاسم على هذه الصورة سوى شارح القاموس . وقد اورد عليه بيتَ ابي الحسن

الفهري المذكورين . على ان إمامه ابا عبد الله الفاسي قد اثبتها والزبيدي نفاها وخطأ شيخه فيها

وكأن بعد عهدي بها أرأمني اياها وزادني رحمة لغربتها ان مشايخنا قطعوا رحمها وزجروها عن بابهم فهي قليلة الحظ من الدنيا خليقة بما يستاهله اليتيم وابن السبيل من الرأفة والعطف .

فانا مورد هنا بعض ما وقع لي فيها من اقوال المولّدين براً بشيخنا وعلامتنا وكفارة عن سقطتي . ومعلوم ان صاحب البيتين ابا الحسن الفهري من اهل المئة الخامسة . وقد ورد لفظ الراء قبله في اقوال الفحول والمبرّزين . من زمن يكاد يتصل بالجاهلية وتداولها من جاء بعدهم .

من ذلك قول مطيع بن اياس يمدح العمر بن يزيد . وهو ممن ادرك ملك بني امية :

واذكُرْ فتىً بيمينهِ حتفُ الزمانِ لدى التوآئهْ
في وجههِ علمُ الهدى والمجدُ في عطفَي ردآئهْ
واذا الامورُ تفاقمت عظمٍ فمصدرُها برآئهْ

ومن عصر العباسيين : قول ابي العتاهية في زهدياته :

بكى شجوَه الاسلامُ من علمائِهِ
فما اكترثوا لِما رأوا من بكائِهِ
فأكثرهم مستقبِحٌ لصواب مَن
يخالفهُ مستحسِنٌ لخطائِهِ
فأيُّهمُ المرجُوّ فينا لدينِهِ
وأيُّهمُ الموثوقُ فينا برآئِهِ

وفي الاغاني ان الرشيد حين حبس ابا العتاهية دفعه الى مِنجاب فكان يَعنُف به . فقال ابو العتاهية :

منجاب مات بدائِهِ فاعجل له بدوائِهِ
ان الامامَ أعلَّه ظلماً بحدِ شقائِه
لا تُعنِفَنْ سيافَهُ ما كان ذاك برآئه
ما شِمتُ ذاك في مخا يلي بارقاتِ سمائه

ويحكى عن الحسن بن هاني المعروف بابي نواس انه شرب نبيذ العسل ويسمونه البِتْع . فاستطابه فقال يمدح جماعة النحل ونشاطها وآدابها وبراعة صناعها وعدل حكومتها وفضل ملوكها :

ترعى ازاهيرَ غيطانٍ واوديةٍ
وتشرب الصفوَ من غُدرٍ وأحساءِ
فطسُ الانوفِ مقاريفٍ مشمَّرةٍ
خوصُ العيونِ بريئاتٌ من الداءِ
من مقربٍ عُشَراءَ ذاتِ زمزمةٍ
وعانقٍ مُتبعٍ منها وعَذراءِ
تغدو وترجع ليلاً عن مسارحها
الى ملوكٍ ذوي عزٍّ واحياءِ
كلٌ بمعقلِهِ تمضي حكومتُهُ
في حزبهِ بجميلِ القولِ والرآءِ

وفي رجز لابن الرومي في ابن المسيب :

ابو الحسين معجَبٌ برآئهِ لايقبل الشورى من اصدقائهِ
يسبح في الجهل وفي طخيائهِ

وفي مزدوجة لابن الهبّارية في مقدمته على كليلة ودمنة :

وعلِ السلطان عز نصرُهُ وهو حصيف كالشهاب فكرُهُ
أن برأي اسعد بن موسى عاد سريرُ ملكهِ محروسا
اصلحَ افسادَ الورى برآئهِ ولطفهِ في الكيد من ذكائهِ

وروى صاحب العقد الفريد لبعض اعدآء البرامكة يغري الرشيد بهم :

قل للخليفة باكتفآئه دون الانام بحسن رآئه
امّا بدأتَ بجعفر فلسُق البرامكَ من انآئه
واخضب بصدر مهندٍ عثنونَ يحي من دمآئه

وحكى الصولي في ادب الكتّاب ما يؤخذ منه ان العُتْبي الشاعر كتب كتابا الى عمرو بن عثمان القيني . وكان صديقاً له . فقدّم اسم صديقه على اسمه وكنّاه ودعا لهُ . وكل ذلك مما يخصون به هامات القوم ونواصيهم ومن يتقدمهم في طيب الاعراق وعتق النجار . والعتبي من بقية بني امية متصل النسب بعُتبة بن ابي سفيان . فاجابه عمرو :

يا ابن الذوائبِ من قريشٍ والذرى
وسليلَ سادةِ ساكني البطحاء
حاشا لمثلك أن يراني قائلاً
بكرامةٍ تزري لديه برائي
لم ترضَ اذ كنّيتني وبدأتَ بي
حتى دعوتَ اللهَ لي بدعائي

على ان الصولي ينكر هذا الحرف كغيره من علماء اللغة . ففي شعر لابي تمام الطائي يعزي محمد بن سعيد بابنه :

لو كان يُغنى حازمٌ عن واعظٍ
كنتَ الغنيَّ بحزمه وذكائه
ليس الفتى من لا يُعَدُّ مدامعاً
من مائها ولوجدُ بعدُ بمائه
فاذا رأيتَ أسى امرئٍ أو صبرَهُ
يوماً فقد بانتَ صورةَ رائه

فقال الصولي في شرحه على هذا البيت : هذا شيء استعمله الطائي وغيره . فاما مذهب سيبويه في ذلك فاذا حُمل عليه كان كالعيب لانه لا يجعل همزة حوبائه وما كان مثلها اذا خفف ياءً خالصة . ولكن تكون بين بين وياء رأيه ياء خالصة لا يجوز قلبها الى الهمزة في هذا الموضع فيقع الاختلاف في الروي . واما غير سيبويه فلا يبعد في مذهبه ان يجعل همزة حوبائه ومثلها اذا خفف ياءً وهو مذهب ضعيف . ونحو من ذلك ما جاء في شعر ابي النجم لانه قال :

هل تعرف الربع عفت جواؤه

وقال فيها :

وعزّ شأوَ المغربين شاؤه

فواو شأوه لا يجوز ان تهمز . وهمزة جواؤه لا يجوز ان تجعل واواً خالصة . اه

وللبحتري في الحسن بن مُخلِد :

ويسوؤني ترك اعتيادكَ والتأخر عن لقائك
ونقيصة السيبي سيبك والمتم من عطائك
بمطاله إني اعدُّ مطاله عن غير رائك

وقال عبدالله بن المعتز يعارض الحسن بن هاني :

يا ليت ابليسَ خلاني لندبته
ولم يصوّب لاحاظي باشياء
مالي رأيتُ ملاحَ الناس قد كثروا
ولم يقدِّر بهم ابليسُ اغوائي
وكيف أُفلتُ من هذا وذاك وذا
ام كيف يثبت لي في توبةٍ رائي

وقال :

يا من بها قد خسرتُ آخرتي
لا تفسدِ بالصدود دنيائي
أهمُّ بالصبر حين تسرفُ في
هجريَ والصبر نازحٌ نائي
حتى اذا ما رأيتُ طلعتها
غيَّرني ما رأيت عن رائي

وروى ابن خلِّكان لابن نباتة السعدي في سيف الدولة بن حمدان وقد اعطاه فرساً :

يا ايها الملك الذي اخلاقه من خلقه ورواؤُه من رائه
قدجاءنا الطِرفُ الذي اهديتَهُ هاديهِ يعقد ارضَهُ بسمائه

ونقل صاحب نشوار المحاضرة كتاباً لابي الفرج الببغاء رفعه الى سيف الدولة يستهديه كسوةً وفيه :

إن تعلمِ الايامُ موضعَ عبده
من عزِّه ومكانه من رائه
بشواهد الخلع التي يغدو بها
متطاولاً شرفاً على نظرائه

فمن العجائب حبس توقيعٍ له
وموقعُ التوقيع من شفعائه

وكتب ابو اسحق الصابي في بعض رسائله سنة ٣٤٥ يصف ما نال روزبهان وقد خذله اعوانه في عصيانه معز الدولة بن بوَيه : (فثنى الينا عنقاً قد أعنقت اليها الحتوف . وأبرقت نحوها السيوف... وبثنا رسلنا الى اوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن الذين كل منهم احد الرجلين اما مسفٌّ الى تناول حطامه عازم على خذلانه وإسلامه . او مغلوب على رائه . محامٍ عن حوبائه .) اه.

وقال ابو منصور الثعالبي في مقدمته على خاص الخاص : (... حمداً يستديم النعمة في بقائه ولقائه . ويستحفظ له علوَّ يده الى علوِّ رائه .) اه.

وقال القاضي عبدالقادر الجرجاني في مقدمته على دلائل الاعجاز : (يلزمنا ان نجيب هذا الخصم عن سواله . ونرده عن ضلاله . وان نطبَّ لدائه . ونزيل الفساد عن رائه .) اه.

وقال الشريف الرضي سنة ٣٧٧ يخاطب الخليفة الطائع :

اذا ما جررت الرمح لم يثنني أبٌ

يليحُ ولا امٌّ تصيح ورائي
وشيَّعني قلبٌ اذا ما أمرته
أطاع بعزمٍ لا يروغ وراء

الراء هنا معطوف على عزم وقد نقل في النسخة المطبوعة من ديوانه (ورائي) في كلا البيتين وهو سهو واضح

وقال ايضاً سنة ٣٨١ يخاطب الملك بهاء الدولة :

خبِّرني تجدني سيفَ عزمٍ
يصمِّم غربه وزناد راء
يعاطيك الصواب بلا نفاق ويمحضك السداد بلا رياء

وروى ابن خلكان لنجم الدين بن صابر المنجنيقي وقد نزل عنده جماعة من الصوفية فاضافهم اياماً فاكلوا ما عنده واقاموا لا يرحلون حتى لم يتركوا له ثاغية ولا راغية فكتب الى شيخهم يبثه حاله ويطلب نجدته :

مولاي ياشيخَ الرباطِ الذي ابان عن فضل وعلياء
اليك أشكو جورَ صوفية باتوا ضيوفي واودَّائي
اتيتُهم بالزاد مستأثراً وبتُّ أشكو الجوعَ احشائي
مشَوا على الخبزِ ومن عادة الـ زهادِ ان يمشوا على الماء

وهم الى الآن ضيوفي فجد لهم بخبز او بحلوآء
او لا فخذهم واكفنيهم فما يحسُنُ في مثلهم رآئي

وحسبي بهذا القدر انه كاف . مخافة ان يشكو القرآء استنفادي صبرهم شكوى المنجنيق من الاضياف . وانما هي زفرة لم نتمالك من ترديدها على ذكرى اليازجي فجعلناها لذلك المجلس ختاماً .

ولكن اين نحن وهذه الآراء من مسمعه وقد حال بيننا وبينه طول الجفاء وعرض الفضاء . وانقطاع الانباء . واتصال الاصباح بالامساء . وبعد ما بين الغبراء والخضراء فقد تركنا واخوات الرآء . كما قال الرمادي شاعر الاندلس في رآء اللثغاء :

لا الرآء تطمع في الوصالِ ولا انا
الهجرُ يجمعنا فنحن سوآء
فاذا خلوتُ كتبتُها في راحتي
وقعدتُ مكتئباً انا والرآء

جبران النحاس ٢٦ دسمبر ١٩٣١